د. مظهر محمد صالح *: الفقر والسعادة: تأملات في الاقتصاد السلوكي.

١-تمهيد:

نظرتُ اليها وهي تعبث في حاوية القمامة قرب منزلنا وانا اطالعها بوجه وديع وخاطبتها: لماذا تخوضين غمار معركة قاسية مع هذه النفايات وانت تجشمين نفسك هذه العذابات في البحث عن اللاشيء يابنيتي.؟ ارتسمت ابتسامة على شفتيها وارتاحت الى اسرار غريزتها وتنهدت من الاعماق حزناً،واجابت : من يتحمل مرارة الصبر في ملازمة غرفة الصفيح التي نعيش فيها نحن الايتام الستة.فخروجي من ذلك المهجع البائس ايها العم هي الفرصة الاخيرة في البحث عن الامل بالعيش!. تنهدت الفتاة ولم استمع تتمة لعباراتها المتلاحقة لانها غمغمت وكأنما كانت تريد ان تسمعني بان الحياة تعاندها وتسحق آمالها وتكيد لها ببخلها وجفافها.ثم استدارت على عقبيها لتعود من حيث اتت وهي تقاسي يومها دون ان يستقبلها غد واعد.ولم تكن هي مستعدة لمثل هذا اللقاء المحزن الذي داهمها في حوار الجوع حول حاوية الازبال ، في حين ظلت تجمع القمامة من مختلف الحاويات وهي تنادي قواها المبعثرة من اجل العيش والبقاء من دون ان يولد لديها شيء من الارتباك او الذهول!.رجعت حزينا الى مكتبتي وانا اقلب كتاباً اشتريته في الاسابيع الماضية من مخزن لبيع الكتب في مطار لندن اثناء عودتي الى بلدي، وعنوانه:علم الاقتصاد Economics تكوين المعنى في الاقتصاد الحديث making sense of the modern economy لمؤلفه ريتشارد ديفيز 2015- RICHARD DAVIES والذي فاجأني في الامر وانا اقرأ مقدمة ذلك الكتاب الذي تناول في واحدة من جوانبه موضوعاً فرعيا عنوانه :الاقتصادات في ازمة! فقلت في سري لقد كثرت الازمات ولكن ماهو أشدها في هذه المقدمة؟وجدت ان الموضوع يتحدث عن ندرة الدخل في العالم. اذ يشير الكاتب في تلك الصفحات الى ان عدد سكان العالم قد تخطى اليوم7,7 مليار نسمة اليوم وان حصة الفرد من الدخل العالمي (البالغ حاليا بنحو 94 ترليون دولار) يفترض فيها انها قاربت 11الف دولار سنويا (اذا ما جرى توزيعها بالتساوي بين سكان العالم). ولكن للاسف مازال هنالك واحد من كل سبعة اشخاص في الارض يعيش في فقر مدقع وان ما يحصل عليه

من دخل سنوي لايتعدى450 دولاراً وهم قرابة مليار نسمة. توقفت من فوري متذكراً بحزن تلك الفتاة، لتفاجئني عبارة كانت اشد حزنا في ذلك الكتاب ويقول فيها الكاتب ريتشارد ديفيز :ان مقدار ما ترميه الاسر في البلدان المتقدمة من غذاء في حاويات القمامة يعادل 222مليون طن سنوياً وهي موارد تعادل من حيث القيمة قرابة 400 مليون دولار ،واذا ما وزعت اقيام تلك النفايات بين اشد الناس فقرا في العالم فانها ستضعهم على خط الفقر النسبي بدلا من الفقر المدقع. ختاما،عرفت ان ريتشارد ديفيز قد خاطب تلك الفتاة الفقيرة في بلادي ليبعث اليها باشارة فكرية محزنة بان العالم مازال يعج في اللامساواة في توزيع الدخل والدليل هو ما تبحثين عنه في حاوية القمامة .!!

٢-السعادة والفقر.

أ- مفارقة إيسترلن (Easterlin Paradox).

لم تغادر فكرة تطورالرفاهية عند الاقتصاديين قضية تطور الدخل ونموه وتوزيعه بعدالة .فمنذ فجر تاريخ الفكر الاقتصادي والرفاهية هي دالة للدخل، كما نطلق عليها ببساطة. وبتزايد اهمية علم اقتصاديات السعادة وبحوثه التطبيقية في حقل اجتماعيات علم الاقتصاد وسايكولوجيته، اكدت الدراسات الميدانية خلال العقود الاربعة المنصرمة ان الثروة مصدرها الدخل لامناص..!! وعندما تبلغ الثروة حد الكفاية ستجعل من فاعليتها او القدرة على توليدها للرفاهية في وضع متناقص ويغدو اقل اهمية وتأثيرا. عدة (مفارقة إيسترلن (Easterlin Paradox بمثابة نقطة وسيطة بين علم النفس وعلم الاقتصاد . من الغريب أن هذين العلمين يتواجدان بشكل متزايد في المناطق المشتركة. إحداها هي فكرة ربط الأموال ، والقدرة على الاستهلاك والسعادة.

لا أحد يستطيع أن ينكر أهمية المال. في كل مرة نسمع فيها المال ليس سعادة. ومع ذلك ، مع بعض التردد ، نشعر بالإحباط أيضًا لأننا لا نملك ما يكفي للحصول على شيء نريده سواء في رحلة او دورة تدريبية او خدمة طبية أفضل لذا عدُت مفارقة العالم ريتشارد إيسترلن من اكثر الافكار اثارة للجدل منذ ان اطلقها ايسترلن نفسه في العام 1974 في جامعة جنوب كاليفورنيا في بحثه المنشور « علم اقتصاديات السعادة» ،مؤكدا انه لايُعتد بمفهوم السعادة لدى سكان البلد الواحد المرتفع الدخل .وان السعادة لا تتمثل بارتفاع حصة الفرد من الناتج الوطني السنوي .!! الامر

الذي ولد تناقضا على صعيد الفكر الاقتصادي الاجتماعي،اذ اطلق على بحثه منذ ذلك التاريخ «مفارقة إيسترلن». فالاختبارات التي اجراها الاخير برهنت ان زيادة دخل الفرد في الولايات المتحدة الاميركية خلال المدة (1946–1970) لم يظهر مايقابلها من زيادة في مستويات سعادة الافراد خلال المدة نفسها التي شهدت انخفاضات حادة على الرغم من ارتفاع متوسطات دخول الافراد السنوية في هذه البلاد الغنية. اثار ايسترلن في مفارقته جدلاً فكرياً واسعا في الاوساط الاكاديمية .ففي العام 2008 توصل عالمان اميركيان من جامعة بنسلفانيا في ردهما على مفارقة ايسترلن الى أن ثمة علاقة لوغارتمية بين مستوى السعادة وارتفاعها مع استمرار ارتفاع مستوى الدخل المطلق والنسبي.ولكن لاحظا ان السعادة تتحرك على مستوى ابطأ من الدخل في الاحوال كافة،وعلى الرغم من انه لا توجد نقطة اشباع للسعادة ،الا ان الدخل سواء النسبي منه او المطلق هو الطريق الى السعادة .كما توصل عالمان اميركيان آخران في السنوات القليلة الماضية الى أن السعادة لها شيء من المرونة ،فاذا ما انخفض الدخل مرة واحدة انخفضت السعادة خمس مرات..!! الامر الذي اتاح الحجة لمهاجمة ايسترلن ثانية،مؤكدين: اذا كانت كثرة الاموال هي ليست السبيل الى السعادة ،اذن لنطلق اللامساواة على عواهنها؟والا ماذا يعاني شعبا اليونان والبرتغال في ايامنا هذه ؟أليس الدخل الوطني وهبوطه ؟أليس الدخل هو السبب في تعاستيهما وقلة سعادتيهما؟؟.الا ان الجمعية العامة للامم المتحدة وعلى الرغم من ذلك اقرت في قرارها الصادر في 11 تموز 2011 اهمية اعتماد الناتج الوطني الاجمالي للسعادة وجعله اكثر اهمية من الناتج الوطني الاجمالي للدخل وعلى وفق اربعة محاورهي: التنمية المستدامة والحفاظ على القيم الثقافية والموارد الطبيعية والحوكمة الجيدة. ختاماً، يعتمد المثل الشعبي البريطاني في تفسير السعادة الذي يقول :ضع عينك بشكل حصري على جارك (جونز) صاحب الدخل المرتفع فهو السبيل الذي يحدد تصرفاتك في تقييم مستلزمات سعادتك .

ب– فقراء في علم الاقتصاد العصبي.

واصل دونالد ترامب سيرهُ على الرصيف المؤدي الى شارع المال في مدينة نيويورك ليتوقف فجأة أمام شحاذ افترش الارض وهو يقلب الكثير من اللاشيء. نظر ترامب الى ذلك الفقير بعين من

الأسى محدثاً إياه: إنك أيها الرجل تمتلك صفر من الثروة وانا مدين بمبلغ 900 مليون دولار بعد ان فقدتُ ثروتي كلها فإنك بالمحصلة اغنى مني! اجابه الشحاذ مبتسماً انا حقاً اغنى منك. ولكن ماذا ان حصلت على المال ثم خسرته، حينها سأكون من الفاشلين، وربما قد اخسر صحتي وانا احاول ان اجمع الثروة، وقد لا اعرف إن كان الناس سيحبونني لشخصي ام من اجل اموالي؟ واخيراً، يمكن ان اتعرض الى السرقة وعندها سأخسر الثروة فضلاً عن خسارة مكاني الذي اشحذ فيه على رصيف شارع المال. ترك ترامب ذلك الشحاذ وهو يسبق الخطى للالتقاء بصديق سيساعده على استعادة ثروته مجدداً ولكنه ظل يردد في سره بان التيارات الرئيسة السائدة في علم الاقتصاد مازالت تستخدم نماذج المنفعة المتوقعة ودور العوامل العقلانية عند استخدامها في التحليل الاقتصادي واختبار نماذج التحليل. هنا توقف ترامب وهو يُحدّث نفسه كرة اخرى قائلاً: ان العديد من تلك التحليلات لم تستطع ان تفسر كيف يمكن الحصول على الثروات التي تحققها الطفرات الاقتصادية وكيف تُشكل تلك الثروات مجدداً! ربما لم يدرك دونالد ترامب ظهور ما يسمى بعلم الاقتصاد العصبي Neuroeconomics وهو من العلوم السلوكية التي تشكلت من خليط علوم الاعصاب وعلوم الاقتصاد، اذ حاول هذا العلم ايجاد مشتركات في التصرف ازاء تعظيم المنفعة ومقاييس الاستجابة العصبية والتي تركز جميعها على دور الدماغ في تدفق الدم. فالدماغ يتكون حقاً من مقاطع وانظمة عديدة تتعامل جميعها في توجيه صنع القرار. فالعديد من القرارات تُتخذ في إطار ظروف محفوفة بالمخاطر، لذلك تتجه النزعة الانسانية إما صوب تحمل المخاطر بغية تعظيم المنفعة او النزعة نحو تجنب المخاطر والتضحية بجانب من المنافع. فقد كشفت البحوث والدراسات في الولايات المتحدة الامريكية ان هنالك الكثير من الامور الاستثنائية والشاذة والانماط الشائعة من التصرفات التي غدت جميعها لا تتلائم ومبدأ تعظيم المنفعة والتي منها تلك النزعة المتجنبة للمخاطر risk aversion التي كان يمارسها شحاذ وول ستريت وهو يفترش الرصيف حين واجهه دونالد ترامب المجازف الذي بات مفلساً.

وهكذا يوضح لنا علم الاقتصاد العصبي بان ثمة مناطق متعددة في الدماغ تختلف في درجة تحسسها إزاء موضوع تحديد المخاطر او حالة اللايقين ازاء التصرفات الانسانية المتعلقة باتخاذ

القرار الاقتصادي، والتي تتوقف على شكل وتركيب وطبيعة القشرة الخارجية لمقدمة العقل البشري. فبالوقت الذي يركز فيه الفقراء على احتمالات الخسارة مهما كانت ضئيلة يركز الاغنياء على احتمالات الربح مهما كانت ضئيلة ايضاً. فكل فريق ينظر الى القدح المملوء نصفه بالماء. فالفقراء يعتقدون ان عليهم معرفة كل شيء مقدماً وضرورة الحصول على تلك المعلومة عند كل ردة فعل وهو امر لا يتيسر حصوله لارتفاع تكاليفه في حين يبقى الاغنياء وحدهم من يمتلك المحفظة المعلوماتية لاتخاذ قراراتهم المعظِمة لمنافعهم utility maximisation وهي حكراً في متناول ايديهم وشبكة اعصابهم في تعظيم ثروتهم مهما كان تركيب قشرة ادمغتهم التي وعدنا بها علم الاقتصاد العصبي!

ج–فقراء اميركا على مقياس أورجنسكي.

لم يتحدد خط الفقر وإشاعة مقاييسه واعتماد نِسبه الا على الاسس العلمية والعملية التي وفرتها عالمة الاحصاء الاقتصادي الراحلة ميلي اورجنسكي منذ منتصف ستينيات القرن الماضي وهي الادوات الاحصائية التي يطلق عليها اليوم (بمقاييس اورجنسكي) في تحديد خط الفقر.وتلك هي الوسيلة االتي استخدمتها الولايات المتحدة في قياس الدخل سواء الدخل الفردي منه او الاسري لكي يتحدد مستوى المعيشة بحده الادنى المقبول.فاذا ماتخطت الاسرة او تخطى الفرد خط الفقر نزولاً ،فانه سيعد من الفقراء لامحالة.وهكذا جاء خط الفقر كتعبير عن ادنى مستوى من الدخل يحتاجه الفرد اوتحتاجه الاسرة حتى يكون بالامكان توفيرمستوى عيش ملائم .ولكن يبقى التساؤل كم هم الفقراء في بلاد غنية كالولايات المتحدة الامريكية والتي يبلغ سكانها اليوم بنحو ٣٣٢ مليون نسمة؟ يمكن القول ان الدوائر الاتحادية المسؤولة في تلك البلاد قد حددت اعلى نسبة فقر بلغتها الولايات المتحدة هي في العام 2011 و بنحو 15بالمئة من السكان(حيث ارتفعت معدلات البطالة الفعلية حينها الى قرابة 12 بالمئة قبل ان تنخفض اليوم الى اقل من 5 بالمئة حالياً) .كما عدت نسبة الفقر آنفا بمثابة النسبة القصوى منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي،مرتفعة من ادنى مستوى لها في العام 2006 والتي كانت بمستوى يزيد قليلاً على 12 بالمئة من اجمالي السكان (اي قبل ان يبدا الكساد الامريكي بعامين). ومنذ العام 2008 تحدد خط الفقر في امريكا بنحو 11دولار يوميا

كدخل للفرد الواحد او 22 دولاركدخل للاسرة المؤلفة من اربعة افراد اثنان منهما اطفال.وان بلوغ الفرد مستوى دخل على خط الفقر فانه لامناص سيبعده من انهيارات العيش اللائق ويمكنه في الحصول على صحة وتعليم ومياه صالحة للشرب ومأوى بمرونة عالية تبلغ 75بالمئة من احتياجاته المعيشية الكلية .ويلحظ ان الاتحاد الاوروبي منذ العام 2000 اخذ يلاحق خطوط الفقر الامريكية لكي يقارنها بمستويات الفقر الاوروبي ليحدد مقاييس تقدم مستوى المعيشة.اذ لوحظ ان معدل الفقر في البرتغال يرتفع بنسبة 48 بالمئة مقارنة بمعدلات الفقر في امريكا .ولكن يبقى معدل الفقر في الدانمارك يقارب 6 بالمئة مرتفعا عن الفقر الامريكي.و في فرنسا ترتفع النسبة الى 12 بالمئة وفي المانيا الى 15 بالمئة .اما على المستوى العالمي ،فقد وضع البنك الدولي معيارا يحصل بموجبه الفرد على دولار واحد في اليوم كي يدخل خانة الفقر المدقع الذي لايوفر له لقمة العيش بيسر.اذ وجد ان نسبة 31 بالمئة من سكان العالم في العام 1990 هم من شريحة الفقر المدقع ولكن انخفضت تلك النسبة في العام 2015 الى النصف بفضل التقدم والنمو الاقتصادي الذي احرزته الصين صاحبة اعلى رقم سكاني في العالم الذي سناتي عليه تفصيلاً.

وبالرغم مما تقدم ، فيتم تصنيف الفقر بالمعايير الأميركية لأسرة مكونة من أربعة أشخاص إذا قل دخلهم السنوي عن 25.7 ألف دولار، في حين يقل الرقم إلى نحو عشرين ألفا لأسرة مكونة من ثلاثة أشخاص، ولأسرة من شخصين 16 ألفا و247 دولارا، ويصبح الشخص فقيرا إذا قل دخله السنوي عن 12 ألفا و784 دولارا. ويقع في هذه الفئة 12.9% من الأميركيات و10.6% من الأميركيين، أي ما يقرب من 38 مليون مواطن. وتزيد هذه النسب بين الأقليات.

ويعيش تحت مستوى خط الفقر ما لا يقل عن 12 مليون طفل، أي ما يقرب من سدس الأطفال الأميركيين، ويحصل 14.3 مليون أميركي على كوبونات حكومية لشراء الطعام المدعم. ختاماً، على الرغم من التقدم الاقتصادي الهائل في الولايات المتحدة وعقود التنمية المتسارعة فيها ،يوم انخفض الفقر من معدل 22 بالمئة من السكان في نهاية الخمسينيات الى 11بالمئة في مطلع السبعينيات ،الا ان من المدهش فيها، ان معدلات الفقر لم تنخفض اليوم عن 11 بالمئة من اجمالي السكان ارتفعت في العام 2020 الى 15% من السكان ولم تسجل اي تقدم في احوال

السكان ممن هم دون خط الفقر.والسبب في ذلك ان (واحد) بالمئة من سكان امريكا مازالوا ينفردون بنحو 40 بالمئة او اكثر من الدخل السنوي وثروة البلاد.!!

٣- مفارقة السعادة : في المذهب الهيدوني (hedonic doctrine) أو المتعوي.

أ-عندما تقلب دفاترك الفلسفية فانك قد تفاجأ بالمذهب الهيدوني او المُتعوي القائل: ان اللذة او السعادة هي الخير الاوحد في الحياة.وهناك على امتداد الحضارة الانسانية من يقول ان المتعة او السعادة هي السلعة الجوهرية في تسيير الحياة.اذ يُعبرالمذهب الاخلاقي للهيدونية عن فكرة مفادها ان جميع الافراد يمتلكون الحق بفعل كل شيء وعلى وفق ما اوتوا من قدرة للحصول على المتعة،وان تعظيمها يحتم بلوغ فكرة المتعة الصافية (والتي لاتعني سوى التسلية مطروحاً منها الآلام).فمتعة الافراد ينبغي ان تتخطى وعلى نحوٍ بعيد مقدار الآلام التي يتعرضون اليها.وقد اخذت الهيدونية مبادئها الاخلاقية من المدرسة القيرونية المنسوبة الى الفيلسوف أرستيوس القيروني (احد تلامذة سقراط) في اليونان القديمة والقائلة: ان اللذة هي هدف الحياة وان السعادة هي السلعة العلوية التي طالما نبحث عنها.في حين جاء المذهب الهيدوني في الحضارة السومرية للعراق متجسداً في ملحمة كلكامش التي دُونت مباشرة بعد اختراع الكتابة مشيرة الى مایاتي: إشبع بطنك، مارس حياتك الزوجية ليل نهار ودع يومك يسوده الفرح ولاتغفل فرصة الرقص والموسيقى، وان اجماليات هذه القضايا هي من اهتمامات الرجل الحصرية.وبهذا سجلت الحضارة السومرية الخطوة الموثقة الاولى للهيدونية او المتعة في تاريخ البشرية في الالف الثالث قبل الميلاد.تناول الاستاذ فريد فيلمان في كتابه الموسوم: السعادة والحياة الجيدة، الصادر عن جامعة اوكسفورد في العام2006 تفصيلاً طبيعة الهيدونية وصدقيتها وتنوعها، موضحاً المضمون الاقتصادي للهيدونية بكونها ذات علاقة بقضية المنفعة الاقتصادية، اي البحث عن السرور والمتعة.اذ عُد الانموذج الاقتصادي الهيدوني احد المتغيرات المستقلة ذات الارتباط بنوعية المتغيرات الاخرى والتي منها نوعية المنتجات التي نسعى الى اقتنائها او نوعية العمل الذي نسعى اليه.فالانموذج الاقتصادي للاجور على سبيل المثال ياتي منسجماً وفكرة التباين.اذ يحصل العاملون على اجر اعلى لآعمال قد لا تجلب السعادة اليهم. وبغض النظر عن هذا وذاك فقد تصدى الفلاسفة المنفعيون في القرنين

الثامن والتاسع عشر الى الدور المركزي للسعادة الهيدونية التي اهملها اتباع مدرسة الفيلسوف كانط Immanuel Kant الكانطيون.فتنصرف النظرية الاخلاقية للسعادة لدى الفلاسفة المنفعيين الى تعظيم الاشياء ذات الاشباع العالي والنوعية الجيدة في المجتمع وهم يتبنون في ذلك مايسمى بالمذهب النتائجي، فالعبرة بالنتائج حقاً.اذ تُقرن ثروة الاخلاق بالافعال التي تحددها او تقررها نتائجُها .وان اعظم المساهمين في الفلسفة المنفعية هما جرمي بنثام Jeremy Bentham وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill في القرنين الثامن والتاسع عشر وكلاهما من المدرسة الهيدونية .اذ يسعى كلا الفيلسوفين في نظريتهما الى البحث عن الاشياء الجيدة للمجتمع، وان جميع الافعال موجهة نحو تحقيق مقدار اكبر من السعادة.وعلى الرغم من ان كلا الفيلسوفين يسعيان الى تحقيق السعادة ،الا ان مدرسة جرمي بنثام تختلف عن مدرسة جون ستيورت ميل في التصدي للهيدونية. فالمدرسة الهيدونية التي تتبع بنثام ،تُعرف بالمدرسة الكمية او المنهج الكمي .إذ يعتقد بنثام Jeremy Bentham بأن قيمة السعادة او المتعة يمكن قياسها كمياً.وان قيمتها يُعبر عنها بكثافة المتعة مضروبةً بطول فترتها وليس اعتمادها كرقم مجرد.ولكن يبقى التساؤل قائما عن كم هي المتعة وما هي فترة امتدادها؟ لذا ينبغي ان تقاس جميعها كمياً.اما المدرسة الهيدونية الاخرى، والتي يدافع عنها جون ستيورت ميل، فهي تلك التي تتبع المنهج النوعي في بلوغ المتعة او السعادة. حيث يرى جون ستيورت ميل ان هنالك مستويات مختلفة من السعادة. فبالتاكيد تتفوق النوعية العالية للمتعة او السعادة على النوعية المنخفضة منها.فالوجود البسيط في الحياة يعطي مدخلاً اسهل للحصول على المتعة البسيطة لكونها تهمل مناحي الحياة الاخرى والعكس بالعكس.ختاماً، اعتقد شخصياً ان الهيدونية الريعية (المجتمعات المنتجة للنفط الخام) هي ذات مداخل سهلة ولكن ذات مخارج عميقة النوعية وتتمتع بكميتها الواسعة لتشمل مناحي الحياة كافة. وهو ما نسميه مجازاً بالمدرسة الثالثة كما اتصورها (اي الهيدونية الريعية).ولكن اثبتت التجربة الراهنة لبلدان الاوبك ان ركون السعادة على فقاعة اسعار الزيت الاسود والعيش الرغيد على عوائد نقدية تدفع بها فوهات براميل النفط ،قد اخذت بالمنهج الهيدوني الثالث الى قمة الهاوية وانهيار سُبل السعادة،ذلك بفقدان التنمية والتنويع الاقتصادي المعمق للسعادة واستدامتها فبالريع النفطي وحده لاتبنى الامم سعادتها ولا تؤسس لهيدونيتها قط..!.

ب–وزارة السعادة .

لم يفاجئنيِ إعلان الرئيس الفنزويلي نيكولاس مادورو عن عزمه تشكيل وزارة جديدة للسعادة تحمل اسم وزارة السعادة الاجتماعية لشعب فنزويلا والتي تسعى الى توفير احتياجات المواطنين من كبار السن وتنفيذ برامج الرفاهية الاجتماعية لهم ، في وقت مازالت اصواتهم الانتخابية تؤثر يومها بقوة في صناديق الانتخابات المحلية القادمة في تلك البلاد . وقد يكون الرئيس الفنزويلي قد تأثر كثيراً بنتائج مقاييس السعادة لجارتيه اللاتينيتين (كوستاريكا وكولومبيا) والتي اعلنتها مؤسسة الاقتصاد الجديد في العام 2006 وعلى وفق مؤشراتها المعتمدة في قياس سعادة الشعوب ، ذلك المقياس المؤلف من متغيرات مختلفة منها توقعات الحياة والثقة بالاخرين ، وكذلك حصة الفرد من معايير تحسن البيئة الاحيائية او ما يسمى (ببصمة القدم الايكولوجية) أي كم يوفيِ التنوع البيئي الاحيائي حاجة الفرد السنوية في تلك البلاد . واللافت ان الدولتين اللاتينيتين اعلاه والمجاورتين لفنزويلا كانتا الثانية والثالثة على التوالي في سلم السعادة او مقياسها حسب بيانات مؤسسة الاقتصاد الجديد. كما جاء البلد الاول في مقياس السعادة ليكون من نصيب سكان جزيرة (فانواتو) الواقعة في حوض المحيط الهادي الجنوبي والتي تبعد 500 كيلومتر شمال شرق كاليدونيا الجديدة او جنوب شرق جزر سليمان واصبحت الجزيرة جمهورية مستقلة في العام 1980 و لا يتعدى سكانها اليوم عن ربع مليون نسمة. في حين جاءت بلدان غنية كبيرة مثل الولايات المتحدة وبريطانيا في النصف الثاني من قائمة الدول التي أظهرت إنحداراً تنازلياً في سعادة شعوبها وعلى وفق بيانات مؤسسة الاقتصاد الجديد. كما أظهر في الوقت نفسه إستطلاع للرأي موضحاً بأن المواطنين البريطانيين والامريكان هم أقل سعادة حالياً عما كانوا عليه في خمسينيات القرن الماضي على الرغم من النمو الاقتصادي الهائل وارتفاع حصة الفرد من الناتج المحلي الاجمالي السنوي. إذ وجد ومن خلال مقياس الثقة بالاخرين (وهو احد المقاييس المهمة للسعادة في المجتمع و الذي امسى مختلفاً بين امة واخرى) ان ثقة الافراد ببعضهم قد انخفضت في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية من 60% قبل اكثر من اربعين عاماً لتصبح اليوم بنحو 30% ، في حين حافظ مؤشر

الثقة على نسبة 60% في البلدان الاسكندنافية. وإن كل ما يقال عن دور معيار البيئة ودخل الفرد في تعظيم السعادة ، فأنهما على الرغم من اهميتهما ، الا انهما لا يشكلان سوى 10% من مقياس سعادة الافراد ! فالسعادة مسألة لا يمكن توفيرها عن طريق الشراء! ويرى المجتمع البريطاني ان اي مرحلة ما وراء النجاح تمثل في جوهرها السعادة حقاً. فعندما نكون في وضع ايجابي ، تعمل عقولنا بفاعلية اكبر وقدرات مبدعة وخلاقة اعمق ومنتجة بشكل اوسع . وهكذا إلتقت في العقود الاخيرة ، نخب من علماء الاقتصاد وعلماء النفس وللمرة الاولى في دراسات اكاديمية وتطبيقية مشتركة تضمنت قياس سعادة الافراد على مدى الفترة الطويلة. إذ يقول الاستنتاج الذي توصلت اليه تلك النخب الاكاديمية ، انه على الرغم من ان السعادة تتزايد عندما يغادر الافراد قاع الفقر وبلوغهم مرتفع الغنى ، الا ان مستوى القناعة يأخذ بالهبوط كلما ابتعدوا كثيرا عن خط الفقر. ويرى الاقتصادي البريطاني المعروف البرفسور ريتشارد لايرد Richard Layard ، الاستاذ في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وعضو مجلس اللوردات البريطاني واحد مؤسسي ((علم اقتصاد السعادة)) بانه حال بلوغ الاجر الشهري للفرد 20 الف دولار فاكثر فان معدل القناعة يأخذ بالتنازل وتخضع القناعة هنا لقانون تناقص المنفعة .

لذا فان السعادة هي موضة سائدة هذه الأيام كما يقال . ومع ذلك، هل يجب أن نتقبل وجهة النظر الشائعة بأن "علم" السعادة الجديد رسّخ تفوق الديمقراطية الاجتماعية الاسكندينافية على التحريرية الأنجلو – سكسونية؟ الإجابة كلا. فالنتائج مدمرة لليقين الزائف لدى "التقدميين"، تماماً كما هي لمعارضيهم. أنتج ريتشارد لايرد من مدرسة لندن للاقتصاد، وعضو مجلس اللوردات البريطاني، موجزاً أنيقاً وعرضاً مؤثراً للمذهب الجديد قبل عامين. وهذا المذهب بحد ذاته، كما يوضح لايرد، تجسيد معاصر لمذهب النفعية الذي وضعه جيرمي بينثام .فما الذي يناقشه البروفيسور لايرد؟ أولاً، أن السعادة هي الهدف الوحيد للنشاط الإنساني. ثانياً، أن السعادة قابلة للقياس. ثالثاً، نحن نعرف ما الذي يسعد الأشخاص، وما الذي لا يسعدهم. وأخيراً، يجب أن تهدف السياسة إلى تحقيق السعادة القصوى. وندرك بناء على ذلك، أن "في الحياة ما هو أكثر من مجرد الازدهار والحرية". ويجادل بأن السعادة هي الهدف الحق "لأنها الأداة التي تحفزنا كلية". علاوة على ذلك "وعلى

العكس من جميع السلع الأخرى، تعتبر السعادة أمراً جيداً بشكل بدهي". ورغم ذلك، فلو أمكن تعظيم السعادة الكلية على حساب الأقلية، فهل يجب علينا القيام بذلك؟ وإذا كان بإمكان الأوهام التي تصنعها الآلات أو تحفزها العقاقير أن تجعل الناس سعداء، فهل نفرض عليهم استهلاكها؟ وإذا كان باستطاعتنا أن نهندس الأشخاص وراثياً ليكونوا أكثر سعادة، فهل نفعل ذلك؟ لا يمكن للنفعية الجديدة أن تتخلص من هذه الأسئلة. لكن بغض النظر عن وجهات نظر المرء حول النفعية بصفتها فلسفة أو السعادة كعلم دقيق، يستطيع رغم ذلك معالجة الاستنتاجات العامة لهذا التحليل. والاستنتاج السلبي الأكثر أهمية هو، أنه بعد حد معين لا تجعلنا الثروة الزائدة أكثر سعادة. ففي أي مجتمع يميل الناس الأكثر غنىً لأن يكونوا أكثر سعادة من الناس الأكثر فقراً، لكن لا يبدو أن نسبة الناس الذين يقولون إنهم سعداء للغاية تزداد مع مرور الوقت. والتفسير لذلك جزئياً هو أن الوضع النسبي مهم، والجزء الآخر من التفسير هو أننا أصبحنا معتادين على الازدهار. والاستنتاج الإيجابي هو أننا نعرف ما الذي يجعلنا سعداء: علاقات عائلية جيدة، ووضع مالي سليم، والعمل، ومجتمع جدير بالثقة، وعدم وجود أي أمراض مزمنة وعقلية، والحرية الشخصية. وفي المقابل، هناك ستة عوامل فقط تفسر 80 في المائة من التباين في الإفادة عن السعادة: الطلاق، والبطالة، ومستوى الثقة في أفراد المجتمع الآخرين، والعضوية في المنظمات غير الدينية، ونوعية الحكومة، والإيمان بالله. اما دورة المتعة hedonic cycle التي تحدث عنها رائد علم اقتصاديات السعادة ريتشارد استرلن ، و تعني انك حالما تصبح ثرياً ستعتاد على حالة الغنى فوراً و سيتحدد مستوى معيشتك مدى الحياة على هذا النمط من الغنى لاغير .

٤- المخاوف الاممية من الفقر : الصراع على الغذاء.

لن يمر خطاب الرئيس الامريكي جو بايدن امام المشرعين في الولايات المتحدة في مطلع العام 2021 عندما اطلق عبارته الخطيرة :بان الصين سوف "تأكل غذائنا" ما يشير الى مخاوف واشنطن من صعود الصين كقوة عظمى مهددة لامن الولايات المتحدة ، لتبدا في الوقت نفسه بحرب غذاء مخفية اعقبت الحرب التجارية التي اعلنها الرئيس الامريكي السابق دونالد ترامب ضد الصين في اذار من العام 2018 وحملت الصين رسوم على صادراتها الى الولايات المتحدة

الامريكية لترتفع من 10% الى 25% على سلع وخدمات صينية قاربت قيمتها نصف تريليون دولار سنويا متهما الصين بالممارسات التجارية غير العادلة وسرقات الملكية الفكرية .وكرد انتقامي من الحكومة الصينية ،فرضت الصين رسوم كمركية على اكثر من 128 منتج امريكي ((اشهرها فول الصويا)). ثم جاء خطاب الرئيس الامريكي بايدن بان الصين سوف تاكل غذائنا ، اذ رد الرئيس الصيني شي جين بينغ في العام نفسه قائلاً: لقد تمَّ القضاء على الفَقرِ المُدقَعِ في بلادنا التي هي أكبر بلد في العالم من حيث عدد السكان.ذلك أمامَ تجمعٍ كبيرٍ عُقِدَ في بكين للإحتفال بإنجازات البلاد في القضاء علي الفقر المدقع .اذ اعلنت الصين انه تم على مدى السنوات الثماني الماضية إزالة جميع المحافظات والقرى الفقيرة البالغ عددها 832 محافظة و 128 ألف قرية فقيرة من قائمة الفقر.

و منذ إطلاق الإصلاح و الإنفتاح في أواخر السبعينيات تخلَّص مايقارب 770 مليون نسمة من سكان الريف من حالة الفقر ذلك استنادا الى خط الفقر الحالي الذي تعتمده الصين. وأسهمت الصينُ بأكثر من 70 % من الحدِّ من الفَقر العالمي خلال الفترة نفسها .اذ يسرد الدكتور ضياء واجد المهندس في عمود وجداني رائع عن تاريخ الصين الزراعي بالقول: تبنَّى ماو في الخمسينيات مشروع (السَّير بقدمين) و الذي يعني المُضيّ بالزراعة و الصناعة؛ مع مشروع (القفز إلى الأمام) لتطوير الصناعات الثقيلة و إنتاج الفولاذ بالإعتماد على الموارد البشرية و ليس على التقدُّم التكنولوجي. أنتجت مشاريعُ الرئيسِ الصيني (ماو تسي تونغ) أكبرَ مجاعةٍ كونيةٍ راح ضحيتها أكثر من (50 مليون صيني)؛ أكلَ الصينيون في زمنها كلَّ الحيوانات و القوارض و الغرباء و حتى الأقارب و الأهل . فَتَحت الصين كلَّ خزينها الإحتياطي من الحبوب؛ و ساعدها العالَم لتتجاوزَ المجاعةَ؛ و بَقَت الصينُ تضمُّ مناطقَ فقيرة و نظامًا شيوعيًّا مستبِدًّا حتى الثمانينيات؛ عندما تشكَّلت منظومة الإدارة الإقتصادية المُدمَجة بين الشيوعية و الرأسمالية.

وبالرغم من هذا وذاك يمثّل سكان الصين أكثر من سدس سكان العالم، في المقابل لا تتوفر إلا على 9% من الأراضي الصالحة للزراعة و6% من المياه العذبة. بالتالي تعتمد في إطعام شعبها بشكل أساسي على الواردات الأجنبية. وحسب أرقام وزارة الزراعة الأمريكية، فان 29% من

صادراتها من لحوم البقر سنة 2020 كانت موجهة نحو الصين، إضافة إلى 48% من لحوم الخنازير و60% من حبوب الصويا.وازاء الاشارات الخطيرة التي اطلقها الرئيس بايدن في خطابه انفا. مضت الصين بشراء معظم احتياطيات الغذاء في العالم من خلال تخزين كميات كبيرة من القمح والأرز والذرة في مستودعات البلاد.

ووفقا لموقع "ميكاي آسيا"، فإن وزارة الزراعة الأمريكية أكدت أن المخزونات الصينية من المواد الغذائية تشهد نموا عام 2022، مضيفة أن بكين قد تشتري نصف احتياطيات الغذاء العالمي من خلال تخزين 69 في المئة من إجمالي كمية الذرة و60 في المئة من الأرز و51 في المئة من القمح. ويرى الخبراء أن الصين زادت من احتياطياتها الغذائية بنسبة 20 في المئة خلال السنوات العشر الماضية، مؤكدين أن هذه الأرقام عالية لدرجة أن هناك خوفا من ارتفاع أسعار المواد الغذائية. لذا فان شهية الصين الكبيرة لشراء الحبوب في خضم حرب الغذاء المخفية hidden food war قد تؤدي لامحالة إلى مزيد من الانخفاض في الإمدادات العالمية للغذاء وتخلق ظروفا للارتفاع المطول في أسعار المواد الغذائية.

٥- ختاماً :بنك الفقراء بنك الشغيلة.

عُدت معدلات الادخار في البلدان الصناعية المتقدمة نسبة الى الدخل الوطني مرتفعة نسبياً،وان القدر الاكبر منها يأخذ طريقه الى المؤسسات المالية ولاسيما المصرفية منها.في حين تبتعد تلك الادخارات في البلدان الفقيرة والاقل نمواً ،على الرغم من انخفاض معدلاتها كنسبة الى الدخل الوطني، من ولوج القطاع المصرفي المنظم.أذ يستقر الكثير من الموارد الادخارية في تلك البلدان الفقيرة في القطاعات الموازية او غير المنظمة ليُستثمر البعض منها بالمشاريع غير المجازة والتي يقع اغلبها خارج حماية القانون. وعادة يضم القطاع غير المنظم صغار التجار و الحرفيين والمزارعين والشغيلة من العمال الذين يعملون بادوات انتاجهم في الارياف والمدن ذلك بغض النظر عن الموارد المالية التي تتاح اليهم لاغراض تسيير اعمالهم. وفي ظل غياب جهاز مصرفي منظم بمقدوره تلبية الطلبات الائتمانية او الحاجة الى التمويل لتلك الشرائح محدودة الدخل،فان الكلف الادارية والمعلوماتية المطلوبة ستكون باهضة بالغالب او غير متوافرة ،الامر الذي يجعل المقدرة

على استرجاع راس المال محدودة جداً.وعلى الرغم من ان اجمالي التدفقات النقدية في تلك البلدان الفقيرة هو مرتفع عادة ويبلغ مابين ثلث الناتج المحلي الاجمالي الى قرابة نصفه،ولكن فقدان الاسواق المالية او انقسامها وتباعدها ،يجعل تلك الاموال تظل مكتنزة في القطاع غير المنظم ولا تبلغ القطاع المصرفي المنظم الا قليلاً ومن ثم يتعثر تدويرها كبذور للاستثمار في المشاريع الصغيرة التي هي بامس الحاجة اليها.واذا ما احتاج الناس الى رؤوس اموال صغيرة فان ليس لهم من خيار سوى اللجوء الى الصرافين او المرابين لغرض الاقتراض.اذ غالباً ما تُقرض الاموال بفائدة سنوية لاتقل عن 50 بالمئة وهو مايسمى(بالربا الفاحش) والذي يعد من اكبر عوائق الاستثمار .ولكن يبقى السؤال كيف يمكن لنا تفادي هذه المشكلة التمويلية؟تبقى التنمية المالية واحدة من القوى الاساسية في التنمية الاقتصادية.وبالرغم من ذلك ، يظل التساؤل قائماً ،أنه كيف يمكن للمجتمعات الفقيرة ان تعظم من راس المال وتمول النمو الاقتصادي اذا كانت الادخارات على قلتها لايتم تداولها او تدويرها بيسر و لمختلف الاستعمالات ..كما يقال! الجوابان واحدة من البدايات المشجعة هو تاسيس بنوك الفقراء.اذ كانت بنغلادش السباقة في توفير الائتمانات او القروض الصغيرة للمحتاجين بغية توفير التمويل للمشاريع التي يجري تاسيسها لمزاولة النشاط الاقتصادي.فقد اسس محمد يونس بنك القرية في بنغلادش في العام 1983 واستحق جائزة نوبل على مبادرته .اذ تقوم فكرته على تقديم قروض الى سكان القرى وان المقترضين يضمن بعضهم البعض .اذ سجل الاسترداد مانسبته 98 بالمئة وان 5 بالمئة من السكان هناك يتخطون حاجز الفقر سنويا.وهو الامر الذي دعى البنك الدولى الى تبني فكرة مصرف القرية او بنك الفقراء في اكثر من 100 بلد في العالم اليوم .ختاما،ان وزارة العمل والشؤون الاجتماعية هي الاحوج اليوم الى تاسيس بنك الشغيلة او مصرف الفقراء .فنجاح فقير واحد في تخطي حاجز الفقر من خلال الانتاج هو اشارة امل في تحرير الالاف من آفة الفقر.

المصادر و المراجع التي اعتمدها الباحث .

المصادر الإنكليزية:

- Richard Davies(2015)"The Economist: Economics: Making sense of the Modern Economy", 4th Edition.The economist.
- Daniel Kahneman(2011)" Thinking,Fast and Slow"
- Farrar, Straus and Giroux.
- Neuronomecs : Decision Making and the Brain. Edited by : Paul W.Glimcher and others.AP 2009.
- Edward Cartwright (2018). "Behavioral economics" Routledge.
- Richard Thaler; Sunstein, Cass (2008). "Nudge:Improving Decisions about Health,Wealth and Happiness." New Haven, CT: Yale University Press.
- Easterlin, Richard".(1995) Will Raising the Incomes of All Increase the Happiness of All". Journal of Economic Behavior and Organization
- Weijers, Dan. "Hedonism".Internet Encyclopedia of Philosophy. Retrieved 29 January 2021.
- Driver, Julia (2014). "The History of Utilitarianism: The Classical Approach."
- The Stanford Encyclopedia of Philosophy .
- "Income and Poverty in the United States." US Department of Commerce . 2018
- Robert C . Allen (2011)."Global Economic History: A very short introduction ." Oxford University Press
- Nenad Paccek(2012)."The Answers: The Global Economy." Marshall Cavendish Edition.

المصادر العربية:

مظهر محمد صالح : مفارقة إيسترلن .منشورات شبكة الاقتصاديين العراقيين /برلين–شباط ٢٠١٦.

مظهر محمد صالح : الفساد في علم الاقتصاد السلوكي / الحوار المتمدن الاجزاء (١–٦)/تموز ٢٠١٨.

مظهر محمد صالح :حوار الفقراء في علم الاقتصاد العصبي / منشورات شبكة الاقتصاديين العراقيين /برلين– تشرين الثاني –٢٠١٦

مظهر محمد صالح : وزارة السعادة / الحوار المتمدن – تشرين الاول ٢٠١٨.

مظهر محمد صالح : الهيدونية و الريعية الاقتصادية ، منشورات شبكة الاقتصاديين العراقيين / برلين–تشرين الاول ٢٠١٦

مظهر محمد صالح : الصين والستار الحديدي الجديد للشيوعية: رؤية في الاقتصاد السياسي للنمو. منشورات شبكة الاقتصاديين العراقيين /برلين – كانون الثاني ٢٠٢٢

مظهر محمد صالح : فقراء اميركا على مقياس أورجنسكي. الحوار المتمدن – كانون الاول ٢٠١٨

مظهر محمد صالح : بنك الفقراء .منشورات شبكة الاقتصاديين العراقيين/برلين–مايس ٢٠١٦.

(*) باحث اقتصادي اكاديمي، نائب محافظ البنك المركزي الأسبق، المستشار المالي لرئيس الوزراء العراقي.

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح باعادة النشر بشرط الإشارة الى المصدر. 2022/12/22

Iraqi Economists Network – شبكة الاقتصاديين العراقيين